في العلاقة بين الفرد والمجتمع عند اوغيست كونت

In the relationship between the individual and the community at Auguste Comte

كريمة بريكي *

*جامعة تونس– karimaphilosophi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 11-01-2024؛ تاريخ القبول: 27-03-2024

ملخص: إننا في هذا البحث نسعى الى بيان أن مسألة الفرد من المسائل الفلسفية التي لا تزال تطرح بحدّة على صعيد التفكير الفلسفي حيث تطور مفهوم الفرد من اليونان باعتباره مصطلح بيولوجي الى القرن السابع عشر ككيان له مجموعة من الخصائص التي تجعل منه هوية ما ،الى القرن التاسع عشر عصر الفردانية باعتباره عصرا مؤسسا لمقولة الفرد حيث اصبح مشكلا وجوديا ،وهو الموضوع الذي تناوله اوغيست كونت–1857) (1798 في الفلسفة الوضعية معتبرا أن الفرد هو كائن اجتماعي بالأساس وأن أهداف المجتمع ما هي إلا أهداف فردية تحقق سعادة الفرد وتسعي إلى تحقيق آماله وطموحاته، الذي يتحمّل مسؤولية ارتباطه بغيره، ،ويبين كونت أن الفرد هو مرتبط في وجوده بالفترة المعاصرة الذي تعيشها أوروبا بعد الثورة الفرنسية، فكيف بالإمكان تحديد موقف كونت من العلاقة بين الفرد والمجتمع ؟ كيف بنى كونت مقولة الفرد ؟ هل عمل على تذويب الفرد في المجموعة ؟.

الكلمات المفتاحية : فرد، مجتمع ، ذات ،الاخر

Abstract : In this research, we have shown that the question of the individual is one of the philosophique issues that still raises philosophy Where the concept of an individual evolved from Greece was a biological term and in the seventeenth century an entity with a set of characteristics that make it an identity, to the nineteenth century the era of individualism is an era of foundations of an individual's saying where it became an existential problem This is the topic addressed by Auguste Comet in positive philosophy, considering that the individual is essentially a social being. The objectives of society are individualized to achieve the happiness of the individual who bears responsibility for his association with others. Comte indicates that the individual is associated in his presence with the contemporary period in Europe after the French Revlution

Keywords: Individual,Community,Same, Other

مقدمة:

إن إشكال الفرد هو إشكال حديث بالمقارنة مع الفكر القديم، والفكر الوسيط. ولا يعني ذلك أن الفكر القديم لمْ يعنى بمسألة الفردindividu، و الفردانية individualisme . حيث نجد في الفكر اليوناني تمجيدا للأبطال باعتبارهم أفرادا متميزين مثل **الاسكندر الأكبر** أو **اشيل** بطل حرب طروادة. غير أن الفرد اليوناني على إشعاعه ورغم بطولاته وفضائله الشخصية، والذاتية فإنه لا قيمة له إلا بانصهاره في المجموعة وذوبانه فيها والانقطاع لخدمتها.

وممَا يذكره التاريخ أن موسيقارا يونانيا مشهورا هو Erpandre تَجرأ على إضافة وترٍ لآلته الموسيقية "القيثار" فوقعت محاكمتُه ومعاقبتُه وكُسرت آلتُه لسبب بسيط هو خروجه عن المألوف والسائد الاجتماعي . وكذلك الشأن في الثقافة الوسيطة إذ هي تُكّبر الفرد ولكنها ترفض الفردانية ، فالفرد لا قيمة له إلا داخل المجموعة .وهنا يشير رسل الى ان "الانسان مخلوق اجتماعي لا بالغريزة ، بل من إحساس غامض الى حدّ قد يزيد أو ينقص بالمصلحة الذاتية والجماعية "(رسل،1960،09)

وبالتالي كان التقليد وإتّباع السُنن المسيطرة على المجتمع تُعتبر من الفضائل التي على الفرد أن يحترمها وأن يتخذها له منهجا في الحياة. فقد وقعت محاكمة أفكار **كوبرنيك** في العلوم الفلكية في شخص وريثه الجسور **غاليليي**Galilée الذي تجاسر بجرأة العالم واعتنق رأيا جديدا مخالفا لمَا زعمته نظرية **بطليموس** المسيطرة على الفكر العلمي السائد منذ أقدم العصور حتى **كوبرنيك** نفسه. فلم يكن من اليسير على الفكر السائد تقبل القول بأن الشمس هي مركز الكون، وليست الأرض.

وبالتالي فإن منطق" النحن" أو المجموعة، أو الأمة، أو الجماعة هو المنطق السائد في العصريين القديم، والوسيط. ولعل من أبرز مظاهر سلطة المجموعة على الفرد هو الوضع المُشين الذي يَسِم ما يُسمَى البدعة فهي مكروهة، أو مُحرمة لأنها تَعني الخروج عن المنطق السائد والتمرد عليه أو محاولة التجديد فيه. وبهذا تصبح الحياة اليومية الفردية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمجموعة، ونتيجة لهذا لا يمكن للفرد أن ينح منحًا مخالفا لرأي المجموعة لأنه لا يستطيع الخروج عنها أو تجاوزها. في هذا الاطار يقول جورج دو بوفّون Buffon " ليس للفرد l'individu في الكون قيمة تُذكر، بل لا قيمة لمئة أو لألف من الافراد تقوم الأنواع les espèces وحدها في الطبيعة (Buffon,1804).

ونتيجة لذلك أدت غلبة المجموعة على الفرد الى رفض منطق الاختلاف والإكراه بطريقة مباشرة وغير مباشرة على الإتباع، بدل الإبداع. ولعل ذلك ما يعبر عنه المسلم السني حين يدع الله أن لا يكله إلى نفسه وأن يُعينه على اتقاء شر نفسه، بل أنه مكروه عنده أن ينطق لفظ "الأنا"، وإذا وقع في ذلك المكروه وجب أن يقول "أعوذ بالله من كلمة أنا"، أليست كلمة أنا هي التي عبر بها **ابليس** عن نفسه في حضرة الرباني وأعلن خروجه عن الأمر الرباني؟. ألا يكون الفرد في هذه الحالة ليس إلا جزءا من الجماعة التي يعيش ضمنها

ويلتزم بقواعدها وقوانينها؟ ألا يكون الفرد في هذه الحالة ليس إلا جزءا من الجماعة التي يعيش ضمنها ويلتزم بقواعدها وقوانينها؟

. **هل يمكن للفرد مخالفة المعايير السلوكية الاجتماعية المتوقعة؟** وهل بالإمكان بناء تأويلية على الفرد؟

1- الفرد باعتباره ذات

إنّ الفرد باعتباره "ذاتا"، أو" أنا"، أو"شخصا" لم يوجد إلا في العصر الحديث وبشكل أدق مع **ديكارت** إذ معه فقط اعتبر" الأنا" الأرضية الصُلبة التي انطلاقا منها تُصبح الحقيقة ممكنة والإنشاء العلمي ممكنا. فالكوجيتوا **الديكارتي** هو الأرضية الصلبة التي بني عليها اليقين الفكري في إشارة من **ديكارت** إلى أن الإنسان قادر بذاته على الإبداع والخلق، وبناء الحقيقة باعتبا أن يقين الذات هو أول يقين يفلت من قبضة الشك الكوني دون تعويل على قوة أخرى غير قوة الذات . فقد صرح ديكارت بأن "ماهية الانسان تكمن في ارادته أساسا وفي المجهود الذي يقوم به ليسمو بذاته الى ما فوق الحيوانية "(ديكارت،1967،80)،

وهكذا فإن **ديكارت** يفتح ما سَماه ألان رونوAlain Renaut عصر الفرد L'être de l'individu وهو مَا سنلمسه في الذات المفكرة الكانطية، والذات المفكرة عند **هوسرل** ، كما سنلمسه في مستوى الحياة العمَلية في الإعلان الذي أصدرته الثورة الفرنسية المتعلق بحقوق الإنسان والمواطن، أي أن الذات المفكرة عند **ديكارت** تقابلها فكرة المواطنة في المستوى العملي، والسياسي في النظم الديمقراطية، وفكرة الفرد في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. يقول ألان في هذا الموضع " إنه لا قيمة للفرد إلا بما يصل إليه بنفسه عن طريق المنهج الوعر وكلّ شخص يرفض المنهج الوعر لا يمكن أن تكون له قيمة البتّة"1932,75 ,Alain) ويتساءل المفكر المغربي عبد الله العروي هل ارتقى المواطن العربي الى مستوى الفرد الذي يفكر بنفسه ولنفسه ويتخذ مواقف قد تعارض أراء المجموعة ؟ ثم يجيب بالقول ،" لا أظن ذلك لأن العربي مازال في غالبيته مكبّلا بالعادات والتقاليد وقيم الدين وسلطة الماورائيات، لأنه كذلك فانه يصبح غير قادر على طرح الأسئلة المصيرية التي يطرحها المواطن الغربي المتمتع بمنزلة الفرد المستقبل في تفكيره عن المجموعة "(عبدالله العروي، 1987،55)

فهل يشكل الفرد مقولة فلسفية يمكن البحث فيها ؟.

2. الفرد في فلسفة اوغيست كونت :

لئن كان **اوغيست كونت** من اللذين غيبوا إشكال الفرد وذلك بإدماجه مثل القدامى في المجموعة أو المجتمع فلان همّ **اوغيست كونت الأول** كان ابستيمولوجيا وسياسيا معا. فالفرد عنده هو موضوع علم النفس الاستبطان وهو ما لا يسلم به باعتبار أن إشكال الحياة النفسية هو إشكال يتقاسمه كل من العلم الفيزيولوجي، والعلم الأنثروبولوجي .

أما الهمّ العملي، أو السياسي فيتمثل في إلحاحه على ضرورة إخراج فرنسا من الثورة إلى الدولة. باعتبار أن كل تقدم أو تغيير إنما يبلغ منتهاه في مستوى النظام، وبالتالي فإن **اوغيست كونت** من هذه الناحية جعل إشكال كل من الفرد، والمجموعة إشكالا ابستمولوجيا وسياسيا أكثر ممَا هو إشكال فلسفي، أوميتافيزيقي مثلما هو الشأن عند **ديكارتDescartes**، **كانط Kant** من قَبله أو **هوسرل Husserl** أو **سارترSartre** من بعده.

- إن السؤال الذي يطرح الآن كيف نفسر انتصار **اوغيست كونت** للفكر القديم القائم على تغليب المجموعة وتذويب الفرد؟، وهل كان إنكاره لعلمية "البسيكولوجيا "بسبب ضعف المنهج المتبع فيه وهو منهج "الاستبطان" فحسب، أم لأن الفرد نفسه لا معنى له عند **اوغيست كونت** ؟ وهل كان انتصار **أ.كونت** لعلم الاجتماع، أو "الفيزياء لاجتماعية " تعبيرا عن موقف من الثورة الفرنسية وممَا كان يعتمل فيها من مطالبة حادة بحرية الفرد واستقلاله حتى لا يكون مجرد "عنصر" في مجموعة تقمع كل إرادة الخروج عليها؟.

من هذا المنطلق نجد **أ.كونت** يستبعد الفرد ويُقّر بضرورة الانطلاق من الكل إلى الأجزاء وليس العكس؛ أي من الأسرة إلى الفرد اعتبارا إلى أن تحديد الظاهرة الاجتماعية يرجع إلى تحديد العلاقات بين علم الحياة، وعلم الاجتماع. وبناء عليه اعتبر **اوغيست كونت** الفرد تابعا للمجموعة ولا حقيقة له إلا في إطارها. وبالتالي فحياته كلها مسخرة للمجموعة، أو "الأمة"، أو الدولة كما نرى ذلك في ما سماه **هيقل** 'الفردية الرائعة" (Hegel, 1835, 60) في الحضارة اليونانية، أو الرومانية. **فالاسكندر المقدوني** ليس له الأهمية إلا بخدمة اليونان وبما يقدمه لبلده من الانتصارات. ولا يمكن له بحال من الأحوال أن يخرج عن "النظام العام" وإلا لقي مصير **سقراط**

ولعل حُجة **اوغيست كونت في ذلك** هو اعتباره أن الفكر هو حقيقة جمعية، وتاريخية من أجل ذلك لا يمكن معالجته بصفة فردية، أوما قبلية *a priori*. وأن المجتمع كلية اجتماعية تتكون من أفراد ومؤسسات وعلاقات وسلوكيات وثقافات، أو ما يمكن تسميته "الوجود الاجتماعي"(Comte1995,80)، معتبر أن مصدر القوة الاجتماعية هي: (الفرد ، الأسرة ، المجتمع).

لذلك كان قصد أ.**كونت** هو إثبات أن "الأسرة تمثل وحدة رئيسية تنشئ أفراد تجمعهم وحدة عضوية متماسكة") ,(Comte,1944,82. فالفرد يتطور بتطور الجماعة خاضعا لمسارها ، دون أن يدرك من هذا التطور شيئا فالفرد هو كائن اجتماعي. مثلما أكد **ميشال فوكو** على ذلك بقوله أن الفرد، مثلا، غير مهم إلا بمقدار ما يساهم في زيادة قوة الدولة، وليست لحياة الأفراد ومَماتهم ومهنهم وبؤسهم وفرحهم أية أهمية إلا بمقدار ما يمكن أن تكون لهذه الاهتمامات اليومية فائدة سياسية. أحيانا، يكون واجب الفرد، من وجهة نظر الدولة، هو العيش والعمل والإنتاج حسب أنماط معينة؛ وأحيانا، يجب أن يموت كي يزيد قوة الدولة. (رابينوف ،1998،204)،في السياق نفسه يشير برتراند رسل الى ان المجتمع المتقدم ما هو إلا عدد من الأفراج الشاعرين بمسؤولياتهم "(رسل،1987،103).

3. اشكال العلاقة بين الفرد والمجتمع

قد تُعيننا المقارنة بين **اوغيست كونت**، و**جون ستوارت ميل** على فهم أفضل لإشكال العلاقة بين الفرد والمجتمع عند **اوغيست كونت** نفسه. فهما يختلفان اختلافا جذريا في مسالة قيمة الفرد، وأهميته في الحياة الاجتماعية. كما يختلفان في تصور دور الفرد في بناء نظرية في علم الاجتماع.

فإن ما نستشفه من موقف **اوغيست كونت** من إشكال الفرد هو تأكيده بأن معرفة الفرد هي شرط إمكان معرفة المجتمع، وهو ما يترتب عنه الإقرار بأولوية علم النفس على علم الاجتماع. اعتبارا–في رأي اوغيست كونت – إلى أن تحديد الظاهرة الاجتماعية يرجع إلى تحديد العلاقات بين علم الحياة، وعلم الاجتماع. ففهم الحياة الأخلاقية يشترط الجمع بين البعدين البيولوجي والاجتماعي، الفردي والجمعي.

- فإذا نظرنا إلى مسالة العلاقة بين الفرد والمجتمع من وجهة نظر بيولوجية –تاريخية معًا نجد أن **اوغيست كونت** يعتبر أن قانون المراحل الثلاثة قانون تكوني génétique ينطبق "ضروريا" على "الفرد"، كما على النوع الإنساني" (Comte,02,1944). ونتيجة لذلك كانت دراسة المجتمع مساوية لدراسة الطبيعة، حيث أن العلم الطبيعي ولا سيما البيولوجيا أصبح المعيار للنظرية الاجتماعية.

- ولئن ذهب **اوغيست كونت** إلى ما ذهب إليه فإنه قصد بذلك الالتزام الدائم بالغاية من قيام العلوم الإنسانية عامة؛ وهي إعادة تنظيم المجتمع تنظيما قائما على العلوم الوضعية. وإن نقد الاستبطان يندرج في هذا السياق سعيا إلى معرفة القوانين المنطقية للفكر البشري على أسس صحيحة، أي موضوعية، لا ذاتية وهو ما يتطلب ربط علم النفس بالبيولوجيا والفيزيولوجيا، حتى ينتظم المجتمع على "هيئة اجتماعية(Mill,1990,468,) أقرب ما يكون إلى الجسم البيولوجي فنتمثل المجتمع كما نتمثل الجسد. حيث الأعضاء مختلفة ولكنها متكاملة متآلفة تعمل في اتجاه وظيفة واحدة هي تحقيق شروط العيش.

وهو الأمر الذي عارضه **جون ستوارت ميل** حيث بين أنه لا أهمية ولا معنى لنظرية القول بأن علم الاجتماع هو الذي يحكم دراسة المَلكات الذهنية والأخلاقية للفرد. بما أن علم الاجتماع ليس علما مستقلا بذاته، بل هو يحتاج في انجازه إلى معرفة الطبيعة البشرية الفردية وقوانينها، ذلك أن "قوانين الظواهر الاجتماعية تنحدر من تفاعل عوامل يخضع كل منها إلى قوانين الطبيعة البشرية"(Mill,1990,80). والقاعدة في ذلك عند **جون ستوارت ميل** هي" أن الفرد سيد على نفسه، وعلى جسده وعقله.

في هذا الاطار نتبين أنه إذا لم يكن علم النفس هو الأساس لعلم الاجتماع بحكم أن الفرد هو الذي يسبق المجتمع في التكّون فإن غاية التنظير الاجتماعي تصبح قيام "استبداد حقيقي للمجتمع على الفرد"(Poppre,1979,346). معتبرا أن دراسة النظام العام هي دراسة لعوامل التوازن، والانسجام في بيئة المجتمع. وأن كل من يتلقى حماية من المجتمع يدين بشيء مقابل تلك المنفعة، وحقيقة العيش في مجتمع تجعل من الواجب أن يلتزم الكل باحترام خط معين من السلوك تجاه الآخرين، حيث بين قورفيتش أن التقابل بين الفرد والمجتمع لم يقتصر على علماء الاجتماع بل نجده عند الحقوقيين والفلاسفة والسياسيين. وقام هذا التقابل على اعتبار "الفرد"، والمجتمع "كليتين مجردتين(Gurvitch,1968,38) .

وهو الأمر الذي نفاه لايبنيتز بقوله أنّه لا يصح أن يتشابه جوهران تشابهاً كلّيّا، وأن كلّ جوهر فرد يعبر عن جملة الكون على طريقته وفي أنّ كل الأحداث [التي ستقع له] متضمنة في تصوّره ومعها جميعّ ظروفها وكل سلسلة الأشياء الخارجية ، مؤكد على ما سماه بمبدأ التفرد(Principe d'individuation)، (Leibniz,236،1999)،حيث يرى لايبنتز أن الفوارق التي تميّز كلّ فرد شبيهة بالفوارق التي تميّز كلّ نوع من الأنواع داخل جنس واحد. ذلك لأن كلّ الفرد، مهما كان موضعه ومكانته الاجتماعيّة أو الفكريّة، يعبّر عن الكون بطريقة فريدة لا يمكن أن تكون طريقة أحد غيره معبرا بذلك على دعوته للحرية المطلقة للفرد لطالما لا تضر الآخرين نفسيا أو جسديا. إذ" أن الأفراد متساوون بالطبيعة، وهم أسياد على أنفسهم، لا تشدهم أي روابط أو التزامات لم يقتنعوا بها بكامل حريتهم(Leibntz,56,1840). ولعله الأمر الذي دعمه **كارل بوبر** برفضه للكل التيارات الفاشية التي تحاول من خلال أنظمتها فرض أساليبها على الفرد، على اعتبار أن هذه الأنظمة والقيمة هي الأفضل للتاريخ وللبشرية جمعاء.

هل أن الفرد والجماعة لا يتفقان، هل هما كائنان متضادان؟

إن هذا التقابل بين الفردي، والجماعي الذي حاول **جورج قورفيتش** أن يبين خطأه. اتخذ عند **أوغيست كونت** شكل التقابل بين علم الاجتماع باعتبار أن موضوعه "الجموع"، وعلم النفس الذي موضوعه "الفرد". حيث يؤكد **جورج قروفيتش** على الأخطاء التي تميز العلاقة بين الفرد والمجتمع معتبر أن لا الفرد، ولا المجتمع يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر ، فهناك ارتباط وثيق بينهما. الفرد هو جوهري في المجتمع، والمجتمع هو الأصيل في الفرد. وأن مشكلة الصراع بين الفرد، والمجتمع تعود في الأساس إلى التفسيرات الخاطئة. فإذا نظر إلى هذه العلاقة بأكثر عمقا نجد أن كل من الفرد والمجتمع لهما نفس الجوانب الخارجية والمادية، والمورفولوجية والبيئية والفسيولوجي(Louis,1999,13)، وبالتالي فإن الصراع بين الفرد، والمجتمع في حدّ ذاته ليس المشكلة التي يمكن أن تنشأ بشكل عام في علم الاجتماع.

وفي هذا الإطار يمكن لنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فندعي مع اوغيست **كونت** أن النوع الإنساني هو "ذات متفردة" وهي موضع تجلي الحياة إذ أنها ترتقي إلى مستوى الوعي بذاتها. وإذا كان سؤال الإنسان بما هو"الفرد" في وضعه الحيوي المباشر سؤال الفلسفة. فإنه من البّين بذاته ما للأبعاد الاجتماعية من أثر في المعيش الفردي، الجسدي منه والوجداني والفكري. ذلك أن الحياة ليست مرتبطة بالمحيط البيولوجي الداخلي، والمحيط الطبيعي الخارجي وحدهما، وإنما أيضا بالمحيط الثقافي، والاجتماعي بما يُتيحه من مستحثّات Stimulants، وما يعرض فيه من صوارف، وبما يُهيئه من إمكانيات، وما يخضع له من موانع. إذ لا يقر علم الاجتماع بطبيعة إنسانية ثابتة، ومحدودة بشكل نهائي، بل تفهم الطبيعة البشرية على أساس ما تكتسبه من تربية داخل الأسرة والمجتمع.

لعلها تربية تأخذ شكل الحتمية الاجتماعية، بمعنى أنه ليس للفرد أن يكون بمعزل كليا عن آليات المجتمع وتأثراته كما لا يمكنه إلا أن يتأثر بالوسط الذي يعيش فيه. ويضيف في هذا الإطار"إن الحياة العائلية ينبغي أن تكون تحضيرا للحياة الاجتماعية" لأن حسب رأي **كونت** أن الفرد لا يكون حقيقة مؤهلا للحياة الاجتماعية إلا بمقدار معرفته في نفس الوقت للطاعة والمحبة.

- وكأننا **بكونت** هنا يجمع بين ما هو خاص، وما هو كوني في الفرد وذلك من أجل إرساء علم موضوعي، أو هو خضوعا للصيرورة التاريخية كما يقول **ماركس**، أو ما يسميه **ماركوز** بالإنسان ذي البعد الواحد المتحرك داخل "المجتمع المغلق" اعتبارا إلى أن المجتمع الصناعي يهمش الفرد وتنسلخ كل طاقته الوجودية الفكرية منها والروحية وبميولاته الجسدية وذلك أنه "داخل الصناعة الثقافية لا يسمح له بالوجود إلا إذا ما تماهى مع العام"(Marcuse,1964 ,56). وهكذا نتبين أن طرح إشكال الفرد في علاقته بالجماعة، أو المجتمع إنما هو طرح سؤال الإنسان أو الذات الإنسانية من حيث الحرية أو الحتمية الاجتماعية ومن حيث الحق في الخروج عن النواميس السائدة والانقياد لها أو الانعتاق منه.

- لهذا فإن الإنسان قادر أن يحقق ذاته في المجتمع بمعني أنه قادر أن يستوعب ويتقبل روح المجتمع للإنسان نزوع كبير إلى تحقيق فردانيته من خلال التحرر من الأطر المجتمعية ذات الطابع السلطوي ضرورة ، بقدر ما فيه من نزوع إلى تحقيق ذاته من خلال الانخراط في سياق الوجود المجتمعي الذي يمنحه معاني ضرورية، معاني هي أبعد من وجوده الفردي الخاص. لا يكون الفرد، عندما لا يكون عضوا في جماعة مؤهلة قانونيا. ومع كانط الذي لديه وجهة نظر مماثلة في هذا المجال اذ يرى " أن لدى الانسان روحا غير اجتماعية وهو استعداد موجود بوضوح في الطبيعة الإنسانية ،لكن أيضا لديه اجتماع لأنه يشعر بنفسه أكثر إنسانية وخاصة اللااجتماعية هي الرغبة في ان يوجد كل شيء على وفق اتجاه الخاص ، ولهذا يجد المقاومة من كل مكان ، ولكن هذه النوازع اللااجتماعية على الرغم من أنها غير محمودة وتنشأ عنها المقاومة ، لكن لو لاها لبقيت كل المواهب كامنة ، وأن هذه الروح اللااجتماعية هي التي احوجت الانسان الى وضع القانون المدني"(كانط ، نظرة في التاريخ،1981،285)

- وهنا يتبين لنا أن الاختلاف بين أوغيست **كونت** و جون ستوارت **ميل** ليس مجرد اختلاف في التأويل، بل هو اختلاف في التأصيل، لأنه يقوم على تضاد بين اتجاهين متعاكسين في تصورهما للفرد والمجتمع. فإذا كانت الكونتية تفصل الفرد عن المجتمع لتحكم وصلهما بالذات، فإن **جون ستوارت ميل** يعطي أهمية كبرى للفرد وهو ما يعني أن المنطلق والموقف الإبستيمولوجي مختلفان – في نظر كونت – اختلافا جوهريا بينهما، فالأولى منطلقها الذات وموقفها مثالية متعالية، والثانية منطلقها الواقع وموقفها تفسيرية واقعانية.

- **الخاتمة**

- مما تجدر الإشارة اليه انه عندما نتأمل فكرة "الفرد" في العصر الحديث نقف على أنها لم تنشأ بالمعني الذي اكتسبته اليوم صدفة. بل هي نتيجة لمسار تاريخي طويل ابتدأ كما يقول الكسندر كواري **Alexander Koyré** مع ما يسميه "الثورة الفلكية"révolution astronomique باعتبار أن هذه الثورة استبدلت مركزية الأرض بمركزية الشمس Héliocentrisme .

- وبذلك اكتشف الإنسان أنه لم يعد مركز الكون الذي تدور حوله جميع الكواكب وأن الأرض التي يعيش عليها ليست إلا كوكب كبقية الكواكب السابحة في الفضاء الكوني . ونتج عن ذلك انفصام العلاقة بين الإنسان والعالم، أو كما قال القدامى بين "الكون الصغير" Microcosme ، والكون الكبير Macrocosme بحيث

أصبح الإنسان "يواجه" العالم وليس جزء منه وهو يختلف عنه ولا يشبهه، بل إن الإنسان أصبح يشعر أنه "غريب عن العالم" بمعنى الإحساس باختلاف جدري بين الإنسان وعالمه إذ لم يعدّ الإنسان يتبوأ أسمى مراتب "السلم الطبيعي"*Scala naturad* كما نجد ذلك في الأدبيات القديمة وخاصة في "التوراة" ، بل هو يضع نفسه في الجهة المقابلة ويؤكد اختلافه الأصلي عن الطبيعة .

- وقد كانت الديكارتية التعبير الفلسفي عن هذا التقابل والاختلاف بالنوع Une différence de nature لا بالدرجة Une différence de degré بين الإنسان والعالم فالكوجيتو الديكارتي يكتشف ذاته في ليل الشك المطلق بحيث أن العالم المادي كله بما في ذلك جسده الخاص Le corps propre موضوع موضع شك بلغ أقصاه في التأمل الميتافيزيقي الثاني مع فرضية "الشيطان الماكر". ولذلك يميز **ديكارت** بين "الجوهر المفكر"، و"الجوهر الممتد".(Descrtes,)وبالتالي فإن الوعي بالذات يكتسي معنى الفردية الابستيمولوجية Individualité épistémologique التي جعل منها **ديكارت** الأساس العميق والوحيد لماَ يمكن أن يكون اليقين المعرفي .

- وظهور هذا "الأنا المفكر" مع **ديكارت** يشكل رفضا صريحا لمَا يمكن أن تكون باقي "المرجعيات المعرفية" مثل سلطة الكنيسة، أو سلطة التقليد، أو سلطة التربية ، أي أن الإنسان أصبح مدعو إلى أن يضطلع بنفسه بمسؤولية وجوده عامة، وبمسؤولية تفكيره خاصة، أي أنه أصبح يواجه قدره المعرفي وحده وهو ما يفسر ثورة **ديكارت** على الأرسطية وعدم خضوعه لسلطة الكنيسة .

- وعن هاتين الثورتين العلمية، والفلسفية ترتبت عنهما ثورة ثالثة أكسبت الكوجيتو الديكارتي معنا اجتماعيا وسياسيا من خلال الثورة الفرنسية وهو ما جعل فكرة المواطن Citoyen تظهر بمعنى جديد يختلف عن معانيها في التاريخ . ويبدو أن ذلك كان حتمية تاريخية لأن انفصال الإنسان عن العالم من ناحية، وانفصاله عن التقاليد الفكرية والمؤسسة المعرفية الاجتماعية جعلته يبحث عن ذاته في ذاته بصرف النظر عن العاملين: الكسمولوجي ، والاجتماعي. وهو ما جعله يجد في جسده الخاص مسكنه الخاص، وبالتالي فإن جسده لم يعد شيئا يشدّه إلى العالم أو يربطه بالمجتمع. وإنما أصبح شيئا "يجسم ذاته" و"يفرده"، Individualiser . وعن اتحاد الذات المفكرة بالجسد الخاص نشأ ما نسميه اليوم "الفرد"L'individu الذي طالب بالاعتراف به اجتماعيا ككائن مستقل وهو ما لبته الثورة الفرنسية بالإعلان حقوق الإنسان والمواطن .

- وقد ترتب عن هذه الثورات الثلاثة المتتالية بالنسبة إلى فكرة الفرد في إطار المجتمع مجموعة من النتائج تتمثل:

- أولا ؛ تأكيد حرية التفكير باعتبارها من خصائص الإنسانية الحديثة في العصر الحديث ويتطلب ذلك الاعتراف بأنه لا سلطان لأحد على فكر احد.

- ثانيا، حرية التفكير لا يمكن أن توجد بالفعل إلا بحرية التعبير باعتبار أن التفكير عملية باطنية في حين أن التعبير عملية اجتماعية تتطلب التواصل والمشاركة وإذاعة الرأي عبر وسائل الإعلام وفي الميادين العامة.

- ثالثا، أن هذا الفرد الحرّ في التفكير والتعبير والذي يسكن جسده قبل أن يسكن العالم أو المجتمع ، أي أن فكرة الفرد في العصر الحديث هي بنية من القيم Une structure axiologique لا تنفصل فيها حرية التفكير عن حرية التعبير ، ولا هذه وتلك عن حرية الحق في التصرف في الجسد الخاص أو الحق في التحرك في الفضاء العمومي وفقا لتلك القيم ، وليس وفقا لقيم مناقضة لها كان آمرها ما كان .

- وفكرة الفرد هذه بمَا لها من محددات اشرنا إليها هي من ضرورات ما نسميه اليوم الاجتماع المدني الديمقراطي بما يفرضه من رفض للتهميش والإقصاء أو السيطرة على الفرد باعتباره شخصا مستقلا قادرا على أن يتميز عن غيره من الأفراد وعلى المجتمع عامة أي أن المجتمع الحديث هو بالضرورة "مجتمع فرداني" Société individualiste والإنسان في هذا المجتمع يسميه ديمون *Homo aequalise* إنسان المساواة في مقابل " الإنسان التراتبي".Homo *hierachicus* وذلك يعني أن الفردي في المجتمع الديمقراطي لا تستقيم دون المساواة. فليس ثمة تفاوت بالطبيعة أو بالميراث بين إنسان وآخر .

- وعن ذلك تنتج اختلافات كثيرة بين الفرد في الفكر القديم، والفرد في الفكر الحديث من ناحية أولى، وبين الحرية عند القدامى والحرية عند المحدثين من ناحية ثانية. وبين الديمقراطية في العصور ما قبل الحديثة، والديمقراطية في العصر الحديث من ناحية ثالثة

- ولئن كان لأبدا من التأكيد على هذه الفوارق الجوهرية فلأننا كثيرا ما لا نميز بين البعد المعجمي La dimension lexicale للفظ ما كالفرد أو الحرية أو الديمقراطية ، والبعد الدلاليLa sémantique dimension فنعتبر أن وجود لفظ ما في العصر القديم يحمل نفس المعنى الذي اكتسبه في العصر الحديث دون أن ننتبه إلى تاريخية المعاني وتبدلها حسب العصور .

لقد أعطى كانط للفرد مبررا كبيرا لمباشرة نفوذه داخل الجماعة، سواء من خلال الحس الخلقي الذي يدرك المعاني الخلقية بداهة ويقرر الخير والشر دون حاجة لتدخل من الآخرين أو من المجتمع إذ رأى أنه ، قرار مستقل حتى عن الدين لقد أنصبت الأفكار الكانطية في مجملها على أن الإنسان العاقل قادر على تسيير أموره على ما يرام، بداية من دور الإرادة الخيرة وطبيعتها التي أطنب في الحديث عنها في "تأسيس ميتافيزيقا مرورا بفكرة الأخلاق" مقرا بقاعدة " افعل كما لو كانت قاعدة فعلك قانونا كليا للطبيعة" الواجب التي لا تكون الإرادة خيرة إلا إذا عملت وفقا له، وصولا إلى القانون الأخلاقي الذي لا يكون صادقا إلا بالامتثال لهذا الواجب.

المصادر والمراجع

1- باللغة الأجنبية

- **Auguste Comte(1975),**Cours de philosophie positive, Paris, Hermann
-***Auguste (C)*** ,(1844) *Discours sur l'esprit positif*, I, Paris,
- Auguste (C), Système de politique positive, ou traité de sociologie instituant la religion de l'Humanité (1851-1854),Vrin,Paris,1929.
- Hegel **Georg Wilhelm (1875)**, ,*Esthétique* **,** Germer,Baillier

- **Georges .Gurvitch,(1968),***La vocation actuelle de la sociologie* Volume I, Paris, P.U.F..

-**John Stuart (Mill),(1990)** *De la liberté*, Paris, Gallimard.
-**John Stuart (Mill**),(1865) *Système de logique*, Paris, Gallimard.
-**Marcuse(H),** L'Homme unidimensionnel ,les éditons Minuit,1968
- **Renaut (Alain), (1989)** L'ère de l'individu, Edition, Gallimard,

-Descartes, *Méditations*, Edition Adam et Tannery des Œuvres de Descartes (1897 à 1913), depuis 1913, une réédition d'Adam et Tannery a été faite chez Vrin. A.T. IXa, 19

-Leibniz, Essais de théodicée, flammarin,1999

-Leibniz,(1840) La Monadologie ,Erdaman

2-باللغة العربية

- كانط (امانيول)،(1981) نظرة في التاريخ العام، ترجمة عبد الرحمان بدوي ، الكويت،ط1
- رسل (برتراند)، (1960)، المجتمع البشري في الاخلاق والسياسة ، ترجمة أحمد عبد الكريم ، القاهرة
- رسل (برتراند)،(1987)أسس لإعادة البناء الاجتماعي ،ترجمة إبراهيم يوسف النجار، ط1، المؤسسة الجامعية للنشر ، بيروت
- عبدالله (العروي)،(1996)،مجمل تاريخ المغرب ،ج1 المركز الثقافي العربي ،ط5